

صلاح الدين البطل الانسان !

روكس بن زايد العزيز

أشعر بالرهبة، وأنا أتناول سيرة هذا الرجل العظيم، الذي لا يقل إعجاب الغرب به، عن اعتزاز الشرقيين !

ولد في (تكريت)، على نهر (دجلة)، وكان في أول أمره ميّالا إلى الأبحاث الدينية. ولم يشتهر اسمه إلا سنة 1164 م 663 هـ، يوم سار مع عمه إلى الحرب - كارها - فصدقت في حقه الآية الكريمة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية 216.

سار مع عمه، في حملته الأولى إلى مصر، ومن هنا أخذ نجم (صلاح الدين)، يسمو، وصيّت بطولته يرتفع. فتكونت له أمنيّتان :

الأولى : إحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي.

والثانية : مواصلة الجهاد والحرب، إلى أن يطهر البلاد من الافرنج، الذين غررت بهم الصهيونية، فأثاروا تلك الحروب المدمّرة، التي سميت بالحروب الصليبية. ذكر لنا الدكتور العلامة (معروف الدواليبي) في مجمع اللغة العربية الأردني « إن عالما فرنسيا وضع كتاب بيّن فيه أن الصهيونية هي التي رثبت الحروب الصليبية وشعارها، وإن هذا العالم لما نشر كتابه، سارعت الصهيونية إلى إيداعه نسخ الكتاب، واختطفت ذاك العالم هو وزوجته، من المطعم. ولم يظهر له خبر إلى يوم الناس هذا ».

أجل، إن (صلاح الدين) ارتقى إلى منصب الوزارة في مصر سنة 1169، فاستطاع أن يقضي على الخلافة الفاطمية، إذ أمر الخطباء أن يهملوا ذكر العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء بالله ! فتم ذلك من غير أن يرتفع صوت. وكما قال (أبو الفداء) ج 3 الصفحة 53 « لم ينطح فيه عنزان ».

ومن أجل تدمير قوة الافرنج انتزع (سورية) من يد حاكمها، الغلام (اسماعيل ابن نور الدين)، في معركة (قرون حماة). وشد ازره انتزاع شقيقه الأكبر (توران) شاه (اليمن) من

أيدي مليكها. كما عَزَز مكانته انضمام الحجاز - وفيها الحرمين الشريفان - إلى (مصر)، لقد تهيأت الأسباب، كما أراد الله، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه. إذ طلب (صلاح الدين) سنة 1175 إلى الخليفة العباسي أن يصدر إرادته بأن تشتمل ولاية (صلاح الدين) : أ - مصر، ب - المغرب، ج - والثرية، د - غربي الجزيرة العربية، هـ - وفلسطين، و - وسورية الوسطى. فبارك الخليفة (المستضيء بالله) ما طلب (صلاح الدين)، ولم يكن في استطاعته أن يفعل غير ما طلب منه ولي نعمته (صلاح الدين)، الذي ردَّ إليه اعتباره بذكر اسمه في خطب المنابر !

وقد تمكن (صلاح الدين) - بعد عشر سنين - من إخضاع (الموصل)، وفرض سلطته على أمراء (العراق). وبهذا أصبح الافرنج محصورين كما يقول المرحوم (فيليت حتي) بين حجري الرحي.

وقد حاول (الحشاشون)⁽¹⁾ - يوم رأوا نجم صلاح الدين يلمع - حاولوا اغتياله مرتين، فخاب سعيهم. وكان من ضحايا (الحشاشين) من الافرنج (ريموند الثاني) أمير (طرابلس) سنة 1152 وملك (أورشليم) (كونراد موننفرات) سنة 1192، بعد اعتلائه العرش بزمان قصير. ولكي يأمن (صلاح الدين) شر الحشاشين، ويتفرغ للافرنج، حاصر قلعة (ميعاد) معقل (إراشد الدين) زعيم الاسماعيلية، فأرغمه على أن يعقد معه اتفاق، يقطع به على نفسه عهداً أن لا يتعرض لـ (صلاح الدين) بأذى أبداً.

فلما اطمأن (صلاح الدين) إلى أنه تخلص من شر الحشاشين، تفرغ لقتال الافرنج، فاستولى على (طبرية) في أول تموز سنة 1187 بعد حصار ستة أيام !

معركة حطين :

بعد ذلك اصطدم (صلاح الدين) بالافرنج في (حطّين) وهي قرية غربي بحيرة (طبرية) بفلسطين، انتصر فيها (صلاح الدين) سنة 583 هـ 1187 م ذاك الانتصار الساحق الذي لم تقم للافرنج بعده قائمة. إذ قُتل فيها جيش الافرنج، المؤلف من عشرين ألف محارب، أهلكهم الحر والعطش، وقع أكثرهم أسرى في يد (صلاح الدين)، وكان بين الأسرى نبلاء الافرنج منهم :

أ - غي ده لوسنيان ملك (أورشليم) الذي استقبله (صلاح الدين) أكرم استقبال.

(1) الحشاشون فرقة من غلاة الاسماعيلية الذين استقلوا في (قلعة الموت) بقيادة (الحسن بن الصباح) 1090 م اشتهروا بتنظيمهم السري، وبتدبير الاغتيالات، يقوم بها فدائيون متطوعون، وقد حاولوا اغتيال (صلاح الدين) كما ذكرنا. واشتد نفوذهم بعد أن اغتالوا الوزير نظام الملك في (نيسابور) سنة 1092 م وقد قضى عليهم في بلاد الفرس (هولاكو) سنة 1256 ودمرهم في (سورية) السلطان بيبرس سنة 1272.

ب - و (ربندل) الذي كان يحسن اللغة العربية، هذا كان نقاضاً للعهود، كثير الأذى، ومن محاولاته المؤذية العديدة انه جهز أسطولا في (ايلة) تعرض فيه لحجاج بيت الله الحرام. فنذر (صلاح الدين) - إن أظفره الله به - أن يقتله بيده. فلما مثل بين يدي (صلاح الدين) طلب ماءً وشرب - ظنا منه أن هذا يسلمه من الموت - لأنه كان يظن أنه يشربه الماء سيعامل معاملة الضيف. لكن (صلاح الدين) ضرب عنقه بسيفه. وعُرض أسرى من الداوية والاسبتارية فأمر بهم فضربت أعناقهم !

وبعد معركة (حطين)، حاصر (القدس)، فاستسلمت في 2 تشرين الأول سنة 1187 م 583 هـ وواصل الفتح شمالا حتى (اللاذقية) و(جبلة) و (جهون) وجنوبا حتى (الكرك) و (الشوبك) كل هذه المدن سقطت في يد (صلاح الدين) قبل أن تنتهي سنة 1189 ومعها شقيف ارنون⁽²⁾ وكوكب⁽³⁾ ولم يبق في أيدي الافرنج بعد هذا إلا (انطاكية)، و (طرابلس)، و (صور) وبعض البلدان الصغيرة، والقلاع⁽⁴⁾.

إن الذي يهمني بعد هذا العرض السريع لحياة هذا البطل الخالد، أن أنوه بإنسانية ورقة (صلاح الدين) القائد الفولاذي، وبُعدّه عن الطمع، وكرمه، وزهده في المغنم والمال. هذه المزايا التي قلما اجتمعت في بطل كما اجتمعت في هذا العظيم؛ فمنها :

أ - معاملته لعدوه ملك (اورشليم) النبيل : (غي ده لوسينيان) إذ استقبله بكل لطف وكرّمه، ولم يتعال عليه.

ب - معاملته لأهل القدس يوم استولى عليها، فلم يقتل أحدا، على نقيض الافرنج، بعد أن فرض على القوم فدية. ولما وجد أن هناك ثلاثة آلاف لم يستطيعوا أن يدفعوا ما فرض عليهم، أعفى ألفا منهم إكراما لأخيه، وألفا إكراما للبطريك الذي تشفع إليه فيهم، وهو أعفى الباقيين إنسانية وعطفا وتسامحا !

ج - لما ولي قصور الفاطميين وما فيها من المجوهرات والنفائس والأموال عَفَّ عن كل ما فيها، ووزعه على حشمه وخدمه، وترك أملاك نور الدين لابنه ولم يلوث ضميره بشيء منها.

د - ولإنسانيته المتفوقة شجع العلم فبنى المساجد والمدارس ورعى العلم والعلماء وأشاع العمران حيث حل.

هـ - وهناك حادثة تدل على رقة العاطفة، وأسمى مواقف الانسانية، يوم اختطف أحد أفراد جيشه طفلا رضيعا (من معسكر الافرنج) وباعه وجاءت أمه تبكي بين يدي (صلاح

(2) قلعة ارنون على البلطاني، وتعرف بالمدونات اللاتينية بـ (بلفورت) BELFORT.

(3) قلعة كوكب قلعة صليبية بنيت في ذلك العهد شمالي (بيسان) قرب الأردن. وكان اسمها الكامل عند العرب (كوكب الهواء) مذكورة في المصادر اللاتينية (BELVOIR).

(4) تاريخ العرب المطول، الصفحة 767.

الدين) فبكى الرجل العظيم ! وأمر بأن يحضر الطفل، فلما أحضر الطفل، علم أن الذي أحضره ابتاعه من رجل لا يعرفه، فدفع إليه الثمن وسلم الطفل إلى أمه، وأركبها على فرس، وأوصلها إلى قومها بكل لطف واحترام.

و - ولكرمه وزهده ورَّع جميع ثروته قبل موته فلم يجدوا في خزانته يوم وفاته سوى سبعة وأربعين درهما، وحرَم واحد صوري(5).

وكان آخر ما فاه به صلاح الدين لابنه (الظاهر غازي) : « أستودعك الخالق العظيم، ينبوع كل خير، اعمل بإرادته لأنها طريق السلام. إياك وإهراق الدماء لأن الدم أعراق لا يسكن أبدا. إسعَ للفوز بقلب شعبك، وأمن ازدهارهم، لأن الله اختارك وأنا اخترتك من أجل هذا. حاول أن تكسب قلوب الوزراء، والنبلاء، فقد صيرني ذلك عظيما، لأنني كسبت قلوب الناس بالعطف والانسانية ».

ومن إنسانيته أنه افتدى قره قوش من الافرنج بعشرين ألف دينار(6).

ماذا أعدد من إنسانية وعدل هذا البطل العظيم، فإني أرى أن أختِم كلمتي العجلى هذه بما أنقله حرفيا من رحلة (ابن جبير) قال : « ومن مفاخر هذا السلطان - صلاح الدين الأيوبي - المزلقة إلى الله تعالى، وآثاره التي أبقاها ذكرها جميلا للدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفه على الحجاج مدة دولة البيديين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيادائها عننا مجحفا ويسامون فيها خطة خسف باهظة. وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر دينارا مؤمنة على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيتناول بالليم العذاب بـ (عذاب) فكانت كاسمها مفتوحة العين.

(5) قطعة من الذهب واحدة من نقد الصليبيين عن أبي الفداء ج 3 ص 91. وعنه نقل تاريخ العرب المطول الصفحة 772.

(6) كان بين لاجاله قره قوش الرومي المقتدى. وقره قوش الأرمني الذي لم يؤسر، وقد نسب الناس ظلما لقره قوش الرومي سخافات لا أصل لها لأنه كان بطلا حكيما له إصلاحات كثيرة.

أهم المراجع :

- الكامل لغز الدين بن الأثير 1160-1234 م 555-632 هـ.
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد 1145-1234 م 540-632 هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان 1211-1282 م 608-681 هـ.
- الفتح القُني في الفتح القُدسي عماد الدين الكاتب 1125-1200 م 519-597 هـ.
- كتاب الروضتين - أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل 1203-1268 م 600-667 هـ.
- تاريخ العرب المطول - الدكتور فيليب حتي، والدكتور الروردد جرجي، والدكتور جبرائيل جور.
- فوائد مسجلة مخطوط. للمؤلف.
- المنجد في الاعلام.
- المختصر في تاريخ البشر، أبو الفداء اسماعيل صاحب حماة 1273-1331 م 672-732 هـ.
- رحلة ابن جبير، تأليف محمد بن أحمد بن جبير 1145-1217 م 540-614 هـ.